

علماء الاجتماع الاقتصادي... عبد الرحمن ابن خلدون

ولد ابن خلدون في مدينة تونس عام (1332) منحدراً من أسرة عربية غنية أصلها يرجع إلى حضرموت، درس ابن خلدون في جامعة تونس العديد من العلوم مثل: الدين والشريعة والفلسفة والعلوم الطبيعية والأدب، وقد برز في كافة هذه الدراسات، وبعد إكماله الدراسة عاش حياة مضطربة نتيجة لعدم استقرار الأوضاع السياسية هناك وكثرة الغزوات بين القبائل واقتتال الأمراء والملوك فيما بينهم طمعاً في السلطة.

عمل ابن خلدون دبلوماسياً متنقلاً في خدمة الأسر المالكة المتنافسة على السلطة، وسجن لمدة سنتين بعد فشل المؤامرة التي دبرها مع أمير حفصي لاستلام السلطة، وعند تغيير الملك أطلق سراحه ورحل إلى أسبانيا فرحب به ملك غرناطة وعينه سفيراً في اشبيلية، غير أنه عاد إلى شمال أفريقيا واستقر في مدينة بجاية وهناك عينه الأمير رئيساً للوزراء، وبعد اغتيال الأمير طرد ابن خلدون من منصبه وأخذ ينمي علاقته مع القبائل العربية في شمال أفريقيا فأصبح رئيس جند هذه القبائل لكنّ عداء أمير بسكره له لم يمكنه من إشغال مركز سياسي حساس فقرر ابن خلدون الانسحاب من السياسة والعسكرية والتركيز على الدراسة والعلم، وخلال أربع سنوات من الاعتكاف تمكن ابن خلدون من تأليف كتاب (تاريخ العالم) وكتاب (المقدمة) الذي أشتتل جزء هام منه على التأمل والعبرة المستمدة مما أصابه من فشل. ترك ابن خلدون بلاد المغرب واتجه إلى القاهرة التي فيها عقد العلاقات مع علماء هذا البلد. وبعد فترة وجيزة عُين فيها قاضياً مالكياً حتى توفي عام (1406م).

أما النظرية الاجتماعية الاقتصادية عند ابن خلدون فتظهر في كتابه المقدمة فابن خلدون يعتقد بأنّ المجتمع ظاهرة طبيعية، ويرجع العوامل المسؤولة عن عيش الناس سوية في مجتمع إلى نقطتين أساسيتين هما:

1- التكافل الاقتصادي الذي يدعم آثاره نظام تقسيم العمل حيث يقول ابن خلدون في كتابه المقدمة (أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته في الغذاء، لذا لا بد له من التعاون مع الآخرين في الحصول على قوته وتمكينهم من الحصول على قوتهم).

2- الحاجة إلى الأمن التي تجعل الأفراد يتجمعون في قبائل أو في مدن كي يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ضد العدوان.

يعطي ابن خلدون المرتبة الأولى للخصائص الاقتصادية للشعوب، فهو يرتب الشعوب حسب أساليب الإنتاج التي تعتمد عليها، أنه يضع في المقام الأول الحياة الحضرية بحرفها المتنوعة ثم المزارعين المتجمعين في قرى والذين يقيمون في السهل أو في الجبل. وأخيراً يأتي البدو كما ويميز ابن خلدون بين الذين يزاولون أعمالهم بالثيران والأنعام مثل: البربر وأهل كرواتيا والأترك والتركماني، وبين الذين يزاولون أعمالهم بالجمال مثل: العرب والأكراد.

ويعتقد ابن خلدون بأن الموارد الطبيعية هي التي تحدد إلى درجة كبيرة أسلوب حياة هذه الشعوب، ويبيد ابن خلدون عندما تحدث عن تأثير النظام الغذائي والمناخ في الأفراد وفي المجتمعات آراء تجعله رائداً للأفكار الحديثة التي يعتمد عليها (مونتسكيو) فهو يلاحظ على العرب الذين يطوفون الصحراء ويفتصرون في طعامهم على اللبن الذي يحل لديهم محل القمح، أن ألوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن وأخلاقهم أبعد من الانحراف وأدهانهم أثقب في المعارف والإدراكات.

ويعود ابن خلدون إلى تكرار هذه الفكرة التي تجعل منه شبه رائد لنظريات المادية التاريخية فهو يقول بالحرف الواحد (اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم في المعاش)، كما أن فلسفته السياسية يمكن تفسيرها في جزء كبير منها باعتبارها اقتصادية. ذلك أنه يقول أن الشعوب التي أقامت دولاً كبيرة وقامت بفتوحات عظيمة مثل العرب والنتار كانت تقطن مناطق صحراوية مما جعلهم أكثر ثراء من الشعوب التي اعتادت الحياة الحضرية.

ويعطي ابن خلدون أهمية كبيرة للظواهر السكانية ويوضح العلاقة بين السكان والثروات الاقتصادية، أن هناك عبارات كثيرة في المقدمة تجعلنا نعدّه من أنصار من يقولون بأن السكان هم سبب الثراء، فهو يقول أن تفوق بعض البلدان عن غيرها في التجارة والرفاهية إنما يرجع إلى زيادة عدد سكانها.

ويفسر ابن خلدون ظاهرة تكوين الأسعار وعملية العرض والطلب حيث خصص فصلاً كاملاً لحركة أسعار المواد الغذائية والسلع في المدن، والأسعار كما يعتقد ابن خلدون تتأثر بقوانين

العرض والطلب علماً بأنَّ الأسعار تعتمد على النقود. فإذا ازدادت النقود مع محدودية السلع، فإنَّ الأسعار تأخذ بالارتفاع، أمَّا إذا تقلص حجم النقود مع ثبات كمية السلع في الأسواق التجارية فإنَّ الأسعار تأخذ بالانخفاض. أمَّا العلاقة بين الأسعار وقوى العرض والطلب فيشرحها ابن خلدون شرحاً علمياً تحليلياً ذلك أنَّ ارتفاع الطلب على السلعة مع ثبات كمية عرضها يؤدي إلى ارتفاع سعرها بينما زيادة العرض للسلعة مع ثبات حجم الطلب عليها يؤدي على هبوط سعرها.

يقول (كلوزيو) بأنَّ ابن خلدون تميَّز في فكره الاقتصادي النير، فقد استطاع ابن خلدون في العصور الوسطى أن يكتشف مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل (أدم سميث وماركس وباكونين) ذلك أنَّه حلل الوظائف الاقتصادية للدولة وماهية القوى السياسية والطوائف الاجتماعية التي تمارس الأنشطة الاقتصادية ودرس طرق الملك وأنواع الملكية وتقسيم العمل إلى حر ومأجور، إضافة على دراسته لقوانين العرض والطلب وعلاقتها بالأسعار والأسواق التجارية.